الاتساق والانسجام النصي في نونية ابن زيدون
دراسة تطبيقية

أ. محمد بن عبد الرحمن

الاتساقُ والانسجامُ النصِّي والعلاقةُ بينهما

مصطلح الاتساق والانسجام من المصطلحات المتداخلة فيما بينها فنجد بعض الباحثين يجعلهما بمعنى واحد، والبعض يفرق بينهما، إضافة إلى تعدد الألفاظ المصاحبة لكل منهما، فتحديد المصطلح ليس بالأمر السهل، وهو ما جعل كثيرًا من الباحثين يستخدمون عدة مصطلحات بمعنى واحد.

إلا أنني حاولت الفصل بينهما، مبينًا أدوات كل منهما وعناصره، وهذا الفصل بينهما لا ينافي قرب المصطلحين وتداخلهما.

المبحث الأول: الاتساق النصِّي وأدواته:

يعدُّ مصطلحُ الاتساق من مصطلحات علم اللغة الحديث، وإنْ اختلفت مسمياته من مؤلف لآخر وفقًا لاختلاف الترجمة، فقد جاء بعدة مصطلحات مختلفة من أبرزها (التماسك)[(١)]، و(التضام)[(٢)]، و(السبك)[(٣)]، و(الربط النحوي)[(٤)]، و(الربط اللفظي)[(٥)]، وغيرها الكثير، إلا أنَّ هذه الاختلافات في الألفاظ تنحى منحى واحد في الدلالة والأدوات، ويتطلب الحديث عن الاتساق بيان معنى الاتساق في اللغة، واصطلاحًا عند علماء اللغة الحديث.

الاتساق في اللغة:

وَرَدَ الاتساقُ في اللغة بمعنى الجمع والضم، ففي اللسان: اتساق القمر: امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة، وقال الفراء: إلى ست عشرة فيهن امتلاؤه واتساقه، وقال أبو عبيدة: وما وسق أي: وما جمع من الجبال والبحار والأشجار كأنه جمعها بأن طلع عليها كلها، فإذا جلل الليل الجبال

---

(١) ينظر: فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح شبيب العجمي، (الرياض، جامعة الملك سعود، سلسلة اللغويات الجرمانية، الكتاب رقم ١١٥): ٩٣. و الأزهر الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا، (بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٣م): ١٥.

(٢) ينظر: إلهام أبو غزالة، مدخل إلى علم لغة النص، (مطبعة دار الكتاب، الطبعة الأولى ١٩٩٢م): ١١.

(٣) ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: إحسان عباس، (القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٩٨م): ١٠٣.

(٤) ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، (مصر، الشركة العالمية للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٧م): ١٤٥.

(٥) ينظر: عزة شبل محمد، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، (القاهرة، مكتبة الآداب): ٩٩.

والأشجار والبحار والأرض فاجتمعت له فقد وسقها، والوسق ضم الشيء إلى الشيء، واتسقت الإبل واستوسقت: اجتمعت، وقيل كل ما جمع فقد وسق، والاتساق: الانتظام(١).

مفهوم الاتساق النصي:

إنَّ مصطلحَ الاتساق النصِّي قد حظي باهتمام كبير لدى علماء لسانيات النص باعتباره خاصية دلالية للخطاب، فيعتمدبه على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى(٢).

ولقد تعدَّدَت تعريفاتُ الاتساق لدى الدارسين لعلم اللغة الحديث، فمن ذلك نجد الأستاذ محمد خطابي يقول: «يقصد عادة بالاتساق ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص/خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمته»(٣). أما (carter) فيعرفه بقوله: «يبدو لنا الاتساق ناتجًا عن العلاقات الموجودة بين الأشكال النصية، أما المعطيات غير اللسانية (مقامية، تداولية) فلا تدخل إطلاقًا في تحديده»(٤).

إنَّ الاتساقَ أو التماسكَ النصِّي يعنى بالدرجة الأولى في ترابط الجمل في النص بعضها مع بعض من خلال استخدام وسائل لغوية معينة، « وهذا الترابط يهتم بالروابط التي تجري في سطح النص أكثر من اهتمامه بالشكل الدلالي أو المعنوي للنص »(٥). وهو «يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق بحيث يتحقق بها الترابط»(٦).

ويمكن القول إنَّ الاتساقَ هو مجموعةٌ من البنى الدلالية والتركيبية التي تربط الجمل على نحو مباشر بعضها ببعض من دون الرجوع إلى المستوى الأعلى للتحليل، أي: مستوى البنية الكبرى، إذ يحصل الربط بوساطة علاقات دلالية أساسية، حيث يعتمد تفسير أحد العناصر في النص على العنصر الآخر، لهذا قد يقع الربط داخل الجملة أو بين الجمل(٧).

---

(١) ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ)، ١٠: ٣٧٩- ٣٨١. وينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة ٢٠٠٥م): ٩٢٨.

(٢) ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، (الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٦٤، أغسطس ١٩٩٢م): ٢٤٤. وسعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات: ١٢٣.

(٣) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، (بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى ١٩٩١م): ٥.

(٤) نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراس معجمية، (عمان، عالم الكتب الحديث، الطبعة الثانية ٢٠١٠م): ٨١.

(٥) جمعان عبدالكريم، مفهوم التماسك وأهميته في الدراسات النصية، (مجلة علامات، ٢٠٠٧م، المجلد السادس عشر، الجزء الحادي والستون): ٢١٠.

(٦) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: إحسان عباس: ١٠٣.

(٧) ينظر: عزة شبل محمد، علم لغة النص، النظرية والتطبيق: ٩٩.

أدوات الاتساق النصي:

إنَّ الاتساقَ النصِّي يقومُ على أدواتٍ وعناصرَ أساسيةٍ يتم من خلالها الحكم على النص بتماسكه، وهذه الأدوات «تقوم بوظيفة إبراز ترابط العلاقات السببية بين العناصر المكونة للنص في مستواه الخطي المباشر للقول»(١).

ومن أبرز أدوات وعناصر الاتساق النصي ما يأتي:

١- الإحالة:

يقصد بالإحالة «وجود عناصر لغوية لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل وإنما تحيل إلى عنصر آخر، مثل الضمائر، وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة»(٢). فهي علاقة قائمة بين أسماء وأشياء أخرى، ولهذا «يجب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال عليه»(٣).

وتقسَّمُ الإحالة إلى قسمين: إحالة مقامية، وإحالة نصية، وتتفرع الإحالة النصية إلى قبلية وبعدية، وقد وضح هاليدي ورقية حسن هذه الأقسام بالرسم الآتي(٤):

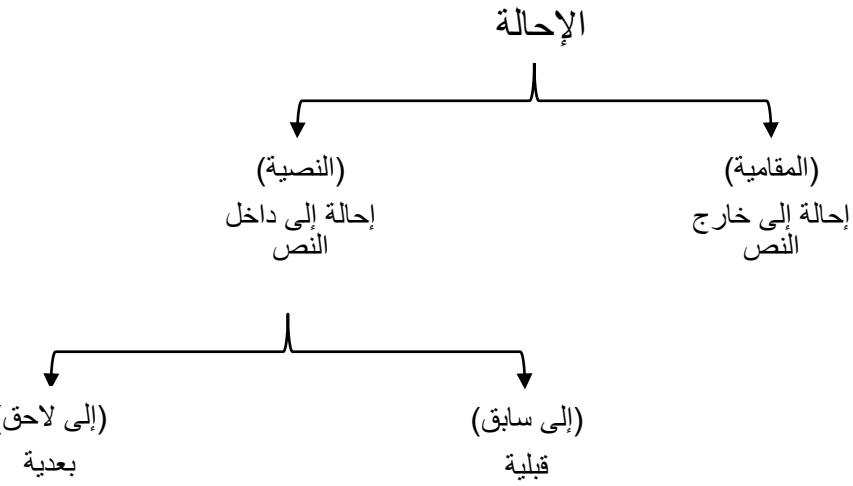

كما نجد فان ديك يشير إلى نوعين من الإحالة هما: إحالة بناء وإحالة تعيين. ففي إحالة البناء يستعمل المتكلم الحد ليحيل على ذات غير متوفرة لدى المخاطب حين زمن التكلم، فهو يصورها ويبنيها في نموذجه الذهني، وفي إحالة التعيين، يحيل المتكلم بواسطة الحد على هذه الذات بعد أن أصبحت

(١) سعيد بحيري، علم لغة النص: ١٢٣.
(٢) محمد خطابي، لسانيات النص: ١٦، ١٧.
(٣) السابق: ١٧.
(٤) السابق: ١٧.

معروفة لدى المخاطب. بهذا فإن إحالة البناء وإحالة التعيين عمليتان متمايزتان، ولكنهما تترابطان ولا تتم الإحالة الثانية إلا بعد أن تتم الإحالة الأولى[١].

وتؤدي الإحالة عملها من خلال الأدوات كالضمائر، وأسماء الإشارة، وأدوات المقارنة، وغيرها.

فالضمائر نوعان، ضمائر تحيل إلى خارج النص، كالضمائر الدالة على المتكلم والمخاطب، وضمائر تؤدي دورًا مهمًا في اتساق النص يسميها هاليدي ورقية حسن بـ «أدوار أخرى» ويندرج ضمنها ضمائر الغيبة والإفراد والتثنية والجمع، فهي تحيل إلى داخل النص[٢].

أما أسماء الإشارة فهي الوسيلة الثانية من وسائل الاتساق النصي المتعلقة بالإحالة، وهي عدة أنواع، منها ما يدل على الزمان (الآن و غدا)، ومنها للمكان (هنا و هناك)، ومنها للبعد (ذلك وتلك)، ومنها للقرب (هذا وهذه)، فهذه الأسماء تقوم بالربط القبلي والبعدي، مما يسهم في اتساق النص[٣].

أما أدوات المقارنة فلا تختلف عن الضمائر وأسماء الإشارة في الإسهام في تماسك النص واتساقه، والمقارنة تتضمن شيئين – على الأقل – يشتركان في صفة بينهما. ويمكن التفريق بين نوعين من أدوات المقارنة، وهي: مقارنة عامة، ومقارنة خاصة. فالمقارنة العامة تأتي بألفاظ المقارنة التي تعبر عن التطابق، كانفسه، أو التشابه، كا شبيه، أو الاختلاف، كامختلف. أما المقارنة الخاصة فتتفرع إلى كمية، وكيفية[٤].

فالدور الذي تقوم به الإحالة أنها تسهم في خلق اتساق الخطاب وضمان استمراره، ويتم ذلك بربط الخطاب بنموذج ذهني واحد متماسك من بدايته إلى نهايته، إضافة إلى أنها تضمن عملية التواصل ذاتها[٥].

٢- الاستبدال:

إنَّ الاستبدالَ عملية داخل النص فهو «تعويض عنصر في النص بعنصر آخر»[٦]. وذلك أن يقوم المتحدث أو الكاتب باستبدال لفظ مكان لفظ آخر يحمل المدلول نفسه، كأنْ يقول متحدثٌ مثلًا: نجحَ خالدٌ في الاختبارِ. فترد عليه: يا ابني سأعطيكَ جائزةً. فقد استبدلت كلمة (خالد) بـ (ابني) واللفظان يحملان المعنى نفسه.

---

(١) ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، (بيروت، منشورات ضفاف، الطعبة الأولى ٢٠٣م): ٣٥٩ ، ٣٦٠. وشريفة بلحوت، الإحالة دراسة نظرية، مع ترجمة الفصلين الأول والثاني من كتاب:
(Cohesion in English) لهاليداي ورقية حسن، (رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٥م): ١٩.
(٢) محمد خطابي، لسانيات النص: ١٨.
(٣) السابق: ١٩.
(٤) السابق: ١٩.
(٥) ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: ٥٧٧ ، ٥٧٨.
(٦) محمد خطابي، لسانيات النص: ١٩.

فالاستبدال في «أساسه أي ارتباط بين مكونين من مكونات النص أو عالم النص يسمح لثانيهما أن ينشط هيكل المعلومات المشتركة بينه وبين الأول»[١]. و «المعلومات التي تمكن القارئ من تأويل العنصر الاستبدالي توجد في مكان آخر في النص»[٢].

وينقسم الاستبدال إلى عدة أنواع:

أ- استبدال اسمي.

ب – استبدال فعلي.

ج- استبدال قولي[٣].

وإذا أردنا أن نتساءل عن كيفية إسهام الاستبدال في اتساق النص؟ نقول إنَّ العلاقة بين المستبدِل والمستبدَل علاقة قبلية بين عنصر سابق في النص وبين عنصر لاحق فيه، فالاستبدال ساعد على الاستمرارية في النص، فالعنصر المستبدل موجود في الجملة اللاحقة وإن اختلف لفظه. كما أنه قد لا يفهم المقصود بالعنصر البديل إلى بالعودة إلى المتعلق به قبليًا. فمعرفة الاستبدال تسهم في اتساق النص وتماسكه[٤].

٣- الحذف:

يعدُّ الحذفُ أحدَ العوامل التي تؤثر في النص، ويسهم في اتساق النص وتماسكه، وهو أن يستغنى عن جزء من الكلام لوجود دليل عليه، وهو «علاقة داخل النص»[٥].

فالحذف «لا يتم إلا إذا كان الباقي في بناء الجملة بعد الحذف مغنيا في الدلالة، كافيًا في أداء المعنى، وقد يحذف أحد العناصر لأنَّ هناك قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدل عليه، ويكون في حذفه معنى لا يوجد في غيره»[٦].

والحذف كعلاقة اتساق لا يختلف عن الاستبدال إلا بكون الأوّل «استبدال بالصفر» أي أنّ علاقة الاستبدال تترك أثرًا، وأثرها هو وجود أحد عناصر الاستبدال، بينما علاقة الحذف لا تخلّف أثرًا، ولهذا فإنّ المستبدل يبقى مؤشّرًا يسترشد به القارئ للبحث عن العنصر المفترض، مما يمكّنه من ملء الفراغ الذي يخلقه الاستبدال، بينما الأمر على خلاف هذا في الحذف، إذ لا يحلّ محلّ المحذوف أيّ شيء،

---

(١) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: إحسان عباس: ٣٠٠.
(٢) محمد خطابي، لسانيات النص: ٢٠، ٢١.
(٣) السابق: ٢٠.
(٤) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص: ٢٠.
(٥) السابق: ٢١.
(٦) محمد حماسة عبداللطيف، بناء الجملة العربية، (القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٣م): ٢٥٩.

ومن ثمّ نجد في الجملة الثانية فراغًا بنيويًّا يهتدي القارئ إلى ملئه اعتمادًا على ما ورد في الجملة الأولى أو النّصّ السابق(١).

ويقسم هاليدي ورقية حسن الحذف إلى ثلاثة أقسام:

أ- الحذف الاسمي، ويقصد به حذف اسم داخل المركب الاسمي: أي قبعة ستلبس؟... هذه هي الأحسن.

ب- الحذف الفعلي، أي أن المحذوف يكون عنصرًا فعليًا، مثل: هل كنت تسبح؟ نعم ، فعلت.

ج- الحذف داخل شبه الجملة، مثل: كم ثمنه، خمسة جنيهات(٢).

والتعمق في الحذف ليس سهلا فنلاحظ أن دي بوجراند يقول: «الإيغال في الحذف يتطلب جهدًا أكبر لربط نموذج العالم التقديري للنص بعضه ببعض في الوقت الذي يقتطع من البنية السطحية بشدة، ووجود الحذف بدرجات مختلفة يتلاءم كل منها مع النص والموقف »(٣).

إذن يمكن القول إنَّ الحذفَ وسيلة تسهم في اتساق النص وترابطه، فهو يربط بين النص والمتلقي، مما يشكل صلة قوية بينهما.

٤- الوصل:

يعد الوصل مختلف عن الأدوات السابقة للاتساق، وذلك لأنه لا يتضمن إشارة موجهة نحو البحث عن المفترض فيما تقدم أو ما سيلحق، كما هو شأن الإحالة والاستبدال والحذف(٤). فالوصل «تحديد للطريقة التي يترابط بها السابق مع اللاحق بشكل منظم »(٥).

وينقسم الوصل إلى عدة أقسام هي:

أ- الوصل الإضافي، أو مطلق الجمع وهو: «الربط بين صورتين أو أكثر من صور المعلومات بالجمع بينهما، إذ تكونان متحدتين من حيث البيئة أو متشابهتين»(٦)، ويعد هذا النوع هو أهم أنواع الوصل.

ب- الوصل العكسي، وهو الذي يأتي على غير متوقع.

ج- الوصل السببي، وهو إدراك العلاقة المنطقية بين جملتين أو أكثر، كعلاقة النتيجة والسبب والشرط.

---

(١) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص: ٢١.
(٢) محمد خطابي، لسانيات النص: ٢٢.
(٣) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: إحسان عباس: ٣٤٥.
(٤) محمد خطابي، لسانيات النص: ٢٢.
(٥) السابق: ٢٣.
(٦) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء: ٣٤٦.

د- الوصل الزمني، وهو الربط بين جملتين متتابعتين زمنيًا[١].

فالوصل يساعد على ترابط الجمل بعضها مع بعض مما يسهم في اتساق النص وتماسكه.

٥- الاتساق المعجمي:

يختلف الاتساق المعجمي عن أدوات اتساق النص السابقة، فهو يقوم بالربط بين الجمل بدون وصل أو إحالة، وإنما عبر العلاقات المعجمية القائمة بين مفردات النص، وينقسم إلى قسمين:

١. التكرار.

٢. التضام.

أولاً: التكرار:

التكرار في المعجم العربي يدور حول عدة معاني من أبرزها (الرجوع، والإعادة، والعطف، والبعث)[٢].

أما عند علماء النص، فلقد نال عناية فائقة؛ لأنه يعد مظهر من مظاهر التماسك المعجمي الذي يؤدي إلى اتساق النص، ومن تعريفات التكرار:

هو «إعادة العنصر المعجمي بلفظه، أو بشبه لفظه، أو بمرادفه، أو بزنته أو بمدلوله، أو ببعض منه، أو بالاسم العام له، مما يؤدي إلى تماسك النص وسبكه»[٣].

ويأتي التكرار بعدة أنماط مختلفة، منها التكرار الكلي، والجزئي، والتكرار بالمرادف، والتكرار بالتضاد، والتكرار بالمشترك، وغيرها.

والتكرار قد يكون ضارًا في النص كما نبه إلى ذلك دي بوجراند فإن لم يحسن استخدامه يؤدي إلى إحباط الإعلامية ما لم يكنْ هناك تحفيزٌ قوي[٤].

أما عن دور التكرار في اتساق النص وتماسكه، فهو يدعم اتساق النص من خلال قيامه بعدة وظائف من أبرزها:

١. الاستمرارية: فالاستمرار في تكرار كملة معينة، يسهم في تتابع النص وترابطه، فالكلمة المكررة تحمل معنى آخر يسهم في اتساق النص.

---

(١) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص: ٢٣، ٢٤.

(٢) ينظر: ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، ٥: ١٣٥. والفيروزآبادي، القاموس المحيط: ٤٦٩.

(٣) نوال بنت إبراهيم الحلوة، أثر التكرار في التماسك النصي، مقاربة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات د. خالد المنيف، (مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد الثامن، مايو ٢٠١٢م): ٢٢.

(٤) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء: ٣٠٦.

٢. شد النص، وسبكه من خلال هذا الاستمرار والاطراد، حيث يسهم التكرار بربط الوحدات النصية الكبرى بالوحدات النصية الصغرى.

٣. يتميز التكرار بطاقة وظيفية متميزة، تتمثل في الدعم الدلالي لمفردات محددة في النص، وإبقائه عليها في بؤرة التعبير، فاللفظ المكرر يحظى من خلال التكرار بقوة دافعة.

٤. تسهيل فهم الكلام، فالتكرار يظهر تعالق الجمل بعضها ببعض، ويسهل على السامع أو القارئ فهم النص(١).

ثانيًا: التضام:

التضام هو: «توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة، نظرًا لارتباطها بحكم هذه العلاقة أو تلك»(٢). فالتضام علاقات قائمة بين الألفاظ في اللغة، كعلاقة التضاد وعلاقة التقابل،(٣)، والخصوص، والعموم، والترتيب، والمجاورة، والجزئية والكلية،وغيرها من العلاقات التي تتم بين مفردات النص ووحداته.

وأنواع العلاقات الحاكمة للتضام هي:

١. التضاد، وكلما كان حادًا (غير متدرج)، كان أكثر قدرة على الربط النصي، والتضاد الحاد قريب من النقيض عند المناطقة، وقد مثَّلَ له أحمد مختار عمر بالكلمات: ميت/حي، متزوج/أعزب، ذكر/أنثى.

٢. التنافر: مثل كلمات: خروف، فرس، قط، كلب بالنسبة إلى كلمة حيوان. وكذلك في الزمن: فصول، شهور، أعوام.

٣. علاقة الجزء بالكل، مثل علاقة اليد بالجسم والعجلة بالسيارة(٤).

كل هذه العلاقات بين الكلمات خلق في النص ما يُسمى بالتضام، فشعور المتكلمين كما يرى (جون لايتر) «يتجه إلى اعتبار أحد المتقابلين في التضاد ذا معنى إيجابي، والآخر ذا معنى سلبي، وليس ذلك عند المتكلم فقط، بل عند المتلقي أيضًا عند استقباله للنص، ولهذا تصنع مثل هذه العلاقات تماسكًا نصيًا بدلالاتها المتناقضة»(٥).

هذا وإرجاع علاقات التضام فيما بينها ليس من السهولة بمكان، لكن القارئ يتجاوز هذه الصعوبة بخلق سياق تترابط فيه العناصر المعجمية معتمدًا على حدسه اللغوي، وعلى معرفته بمعاني الكلمات،

---

(١) ينظر: نوال الحلوة، أثر التكرار في التماسك النصي: ٢٤، ٢٥.
(٢) محمد خطابي، لسانيات النص: ٢٥.
(٣) الطيب العزالي قواوة، مفهوم التماسك النصي عند القدامى والمحدثين، (جامعة الوادي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، العدد الرابع، مارس ٢٠١٢م): ١٩٤.
(٤) ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، (القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الخامسة، ١٩٩٨م): ١٠١ – ١٠٦.
(٥) أحمد عفيفي، نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، (القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠١م): ١١٣، ١١٤.

وغير ذلك. ولا يوجد مقياس آلي يجعلنا نعتبر هذه الكلمة أقرب إلى هذه المجموعة أو تلك، لكن أقل ما يمكن أنْ يقالَ إنَّ هذه الكلمة أشد ارتباطًا بهذه المجموعة من ارتباطها بمجموعة أخرى(١).

في نهاية الحديث عن اتساق النص يمكن القول إنَّ الأدوات السابقة لا يمكن أن تحقق دلالة التماسك النصي بمفردها، وإنما بتواردها جميعًا ، أو بعضها في النص، مع جهد القارئ في اكتشاف دور هذه الأدوات وعملها، فقد يختلف الحكم على نص من قارئ لآخر باختلاف معرفة كل من القارئين باللغة وأدواتها، فلا يكفي معرفة هذه الأدوات ودورها دون معرفة شاملة للنص، فتفاعل القارئ المتبادل بينه وبين النص ينتج من خلاله الحكم عليه بالتماسك من عدمه.

المبحث الثاني: الانسجام النصِّي وأدواته:

الانسجام النصِّي له علاقة قوية بالاتساق حتى إنه يصعب الفصل بينهما لدى كثير من الدارسين، أو الخلط بينهما، لشدة العلاقة القائمة بين الاتساق والانسجام، فالحكم على النص يتم من خلال اتساقه وانسجامه، ونظرًا لهذا الترابط بينهما نجد كثيرًا من الدارسين يجعلهما بمعنى واحد، أو يقيم أحدهما مقام الآخر.

ومصطلح الانسجام نجد أنه كمصطلح الاتساق جاء بعدة مصطلحات تحمل دلالة واحدة، من أبرز هذه المصطلحات (الالتحام)، و(التشاكل)، و(الحبك)، و (التناسب) و(التقارن) وغيرها.

وقبل الحديث عن الانسجام النصي عند علماء اللغة الحديث، نشير إشارة سريعة إلى معنى الانسجام في المعجم.

الانسجام في اللغة:

ورد في لسان العرب أن المادة (س ج م) تدل على معان أهمها: «سَجَمَ: سجمت العين الدمع والسحابة الماء تسجمه وسجومًا وسجمانًا: وهو قطران الدمع وسيلانه قليلاً أو كثيرًا، وانسجم الماء والدمع فهو منسجم إذا انسجم أي: انصب »(٢).

وفي القاموس المحيط: «سجم الدمع سجومًا وسجامًا، ككتاب، وسَجَمته العين، والسحابة الماء تسجِمه وتسجُمُه سجمًا وسُجُومًا وسَجمانًا، قطر دمعها وسال قليلاً أو كثيرًا »(٣).

فإذا تتبعنا مادة (س ج م) نجد أنها تدور حول القطران، والصب، والسيلان، فنجد أنها توحي بالتتابع والانتظام وعدم الانقطاع.

---

(١) ينظر: محمد خطابي، لسانيات الخطاب: ٢٥.
(٢) ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، ١٢: ٢٨٠.
(٣) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: ١١١٩.

مفهوم الانسجام النصي:

إنَّ مصطلحَ الانسجام يعد ذا أهمية في حقل علم اللغة النصي، فهو «الطريقة التي يتم بها ربط الأفكار داخل النص »[١]. وهو «ما تنطوي عليه تشكيلة المفاهيم والعلاقات من تواصل ووثاقة صلة متبادلة »[٢].

فالانسجام يعني العلاقات التي تربط معاني الجمل في النص، فهو «يتصل برصد وسائل الاستمرار الدلالي في عالم النص أو العمل على إيجاد الترابط المفهومي »[٣].

من خلال هذا المفهوم للانسجام نستطيع القول إنَّ الانسجام يهتم بالروابط الدلالية، بخلاف الاتساق الذي يهتم بالروابط الشكلية الظاهرة في النص. ولذلك يقول محمد خطابي: إنَّ الانسجامَ أعمُ وأعمقُ من الاتساق، وذلك لارتباطه بالعلاقات الخفية التي تنظم النص وتولده[٤].

أدوات الانسجام النصي:

تعدَّدت أدوات الانسجام وآلياته تبعا لتباين آراء علماء النص، حيث يتطلب التعمق في هذه الأدوات جهدًا كبيرًا ، وسأقف هنا على أبرزه هذه الأدوات بإيجاز لدى علماء النص، وهي:

١- السياق:

إنَّ مفهومَ السياق قد حظي باهتمام كبير لدى علماء اللغة العربية، قديمًا، وأولوه عنايتهم، ولذلك لما له من أثر في فهم النص، كما أن الدراسات الحديثة اهتمت به اهتمامًا كبيرًا، وسيكون الحديث هنا على الدراسات الحديثة لمفهوم السياق وأثره في النص.

من أبرز المدارس التي اهتمت بالسياق مدرسة (فيرث) التي قامت على أساس المعنى، والمعنى عندهم كما يقول فيرث: «لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة»[٥].

وقد قسم السياق إلى عدة أقسام هي:

١. السياق اللغوي، صرفيًا وصوتيًا ونحويًا ومعجميًا.
٢. السياق العاطفي، ويحدد بدرجة القوة والضعف في الانفعال، مما يقتضي تأكيدًا أو مبالغة أو اعتدال.

---

(١) محمد عزام، النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١م): ٥٠.
(٢) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء: ١٢٠.
(٣) أحمد عفيفي، نحو النص: ٩٠.
(٤) محمد خطابي، لسانيات النص: ٥، ٦.
(٥) أحمد مختار، علم الدلالة: ٦٨.

٣. سياق الموقف، وهو الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة.

٤. السياق الثقافي، ويقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة[١]. فهذه الأقسام تبين دلالة المعنى وأثره في السياق، فلا يمكن الفصل بينهما.

أما (براون) و(يول) فالسياق عندهما يقومُ بدورٍ فعالٍ في تأويل وفهم وتفسير النص/الخطاب، فهو يتشكل لديهما من المتكلم والمستمع والزمان والمكان[٢].

ونجد (هايمز) يقسم خصائص السياق وعلاقتها بتحديد نوع الأحداث الكلامية، إلى عدة أقسام:

١. المرسل: وهو المتكلم أو الكاتب الذي ينتج القول.

٢. المتلقي: وهو المستمع أو القارئ الذي يتلقى القول.

٣. الحضور: وهم مستمعون آخرون حاضرون يساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي.

٤. الموضوع: وهو مدار الحدث الكلامي.

٥. المقام: وهو زمان ومكان الحدث التواصلي.

٦. القناة: وهي كيف تم التواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي.

٧. النظام: وهو اللغة أو اللهجة أو الأسلوب اللغوي المستعمل.

٨. شكل الرسالة: وهي نوع الرسالة.

٩. المفتاح: ويتضمن التقويم: هل كانت الرسالة موعظة، أو شرحا، أو غير ذلك.

١٠. الغرض: أي أن ما يقصده المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة للحدث التواصلي[٣].

فهذه الخصائص ليست بالضرورة في كل الأحداث التواصلية فكلما زادت معرفة المحلل بها زادت قدرته على فهم ما يمكن قوله.

٢- التأويل:

إنَّ التأويلَ«يعتبر تقييدًا للطاقة التأويلية لدى المتلقي باعتماده على خصائص السياق، كما أنه مبدأ متعلق أيضًا بكيفية تحديد الفترة الزمنية في تأويل مؤشر زمني مثل (الآن) أو المظاهر الملائمة لشخص محال إليه بالاسم (محمد) مثلاً»[٤].

---

(١) ينظر: أحمد مختار علم الدلالة: ٦٩- ٧١.
(٢) محمد خطابي، لسانيات النص: ٥٢.
(٣) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص: ٥٣.
(٤) السابق: ٥٦.

كما أن التأويل يقوم على رصد العلاقات الخفية بين أجزاء النص، ويمكن القارئ من اكتشاف النص والتعمق فيه، مما ينتج عن ذلك نصا آخر قائم على هذا التأويل الممكن في النص.

فالتأويل يعتمد على التجارب السابقة في مواجهته للنص أو نصوص ومواقف سابقة تشبه من قريب أو من بعيد النص أو الموقف الذي نواجهه حليا، وبفضل التأويل استبعاد مالا ينسجم ولا يتلاءم مع العناصر التأويلية والمعلومات الواردة في النص/ الخطاب(١).

٣- التغريض:

يعرفه (براون) و (يول) بأنه:«نقطة قول ما »(٢). ونقطة بداية أي نص تكمن في عنوانه أو الجملة الأولى، فالعنوان عنصر مهم في سيميولوجيا النص، ففيه تتجلى مجموعة من الدلالات المركزية للنص الأدبي(٣). وبالعنوان يثار القارئ ويظهر توقعاته حول ما يمكن أن يتضمنه النص، لذا يعده (براون) و (يول) أقوى وسيلة من وسائل التغريض(٤).

ويحدد (كرايمس) التغريض بمفوم أعم وهو «كل قول، كل جملة، كل فقرة، كل حلقة، وكل خطاب منظم حول عنصر خاص يتخذ كنقطة بداية »(٥).

كما أنه هناك عناصر أخرى وطرق أخرى يتم بها التغريض كتكرير اسم الشخص، واستعمال ضمير محيل إليه، وتكرير جزء من اسمه، أو استعمال ظرف زمان يخدم خصيصة من خصائصه، أو تحديد دور من أدواره في فترة زمنية(٦).

هذه أبرز أدوات الانسجام النصي، التي تمكن القارئ والمحلل من الحكم على النص بالانسجام، مع وجود غيرها الكثير من الأدوات والعناصر التي لا تقل أهمية عن هذه، ولعدم الإطالة اقتصرت بالحديث عن أبرز هذه الأدوات ودورها في الانسجام النصي.

نونية ابن زيدون

١ أضحى التنائي بديلا من تدانينا ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

٢ ألا وقد حان صبح البين، صبحنا حين، فقام بنا للحين داعينا

٣ من مبلغ الملبسينا، بانتزاحهم حزنا، مع الدهر لا يبلى ويبلينا

٤ أن الزمان الذي ما زال يضحكنا أُنسًا بقربهم قد عاد يبكينا

---

(١) السابق: ٥٧.
(٢) محمد خطابي، لسانيات النص: ٥٩.
(٣) محمد عزام، النص الغائب: ٢٨.
(٤) محمد خطابي، لسانيات النص: ٦٠.
(٥) السابق: ٥٩.
(٦) السابق: ٥٩.

٥ غـيظ العـدا مـن تسـاقينا الهـوى فـدعوا بـأن نغـص، فقـال الـدهر آمينـا
٦ فانحـل مـا كـان معقـودا بأنفسـنا وانبـت مـا كـان موصـولا بأيـدينا
٧ وقـد نكـون، ومـا يخشـى تفرقنـا فـاليوم نحـن، ومـا يرجـى تلاقينـا
٨ يـا ليـت شـعري، ولـم نعتـب أعـاديكم هـل نـال حظـا مـن العتبـى أعادينـا
٩ لـم نعتقـد بعـدكم إلا الوفـاء لكـم رأيـا، ولـم نتقلـد غيـره دينـا
١٠ مـا حقنـا أن تقـروا عـين ذي حسـد بنـا، ولا أن تسـروا كاشـحا فينـا
١١ كنـا نـرى اليـأس تسـلينا عوارضـه وقـد يئسـنا فمـا لليـأس يغرينـا
١٢ بنـتم وبنـا، فمـا ابتلـت جوانحنـا شـوقا إلـيكم، ولا جفـت مآقينـا
١٣ نكـاد ، حـين تناجيكم ضـمائرنا يقضـي علينـا الأسـى لـولا تأسـينا
١٤ حالـت لفقـدكم أيامنـا، فغـدت سـودا، وكانـت بكـم بيضـا لياليـنا
١٥ إذ جانـب العـيش طلـق مـن تألفنـا ومربـع اللهـو صـاف مـن تصـافينا
١٦ وإذ هصـرنا فنـون الوصـل دانيـة قطافهـا، فجنينـا منـه مـا شـينا
١٧ ليسـق عهـدكم عهـد السـرور فمـا كنـتم لأرواحنـا إلا رياحينـا
١٨ لا تحسـبوا نـأيكم عنـا يغيرنـا أن طالمـا غيـر النـأي المحبينـا
١٩ والله مـا طلبـت أهواؤنـا بـدلا مـنكم ، ولا انصـرفت عـنكم أمانينـا
٢٠ يـا سـاري البـرق غـاد القصـر واسـق بـه مـن كـان صـرف الهـوى والـود يسـقينا
٢١ واسـأل هنالـك: هـل عنـى تـذكرنا إلفـا، تـذكره أمسـى يعنينـا ؟
٢٢ ويـا نسـيم الصـبا بلـغ تحيتنـا مـن لـو علـى البعـد حيـا كـان يحيينـا
٢٣ فهـل أرى الـدهر يقضـينا مسـاعفة منـه، وإن لـم يكـن غبـا تقاضـينا
٢٤ ربيـب ملـك، كـأن الله أنشـأه مسـكا ، وقـدر إنشـاء الـورى طينـا
٢٥ أو صـاغه ورقـا محضـا ، وتوجـه مـن ناصـع التبـر إبـداعا وتحسـينا
٢٦ إذا تـأود آدتـه، رفاهيـة تـوم العقـود، وأدمتـه البـرى لينـا
٢٧ كانـت لـه الشـمس ظئـرا فـي أكلتـه بـل مـا تجلـى لهـا إلا أحايينـا
٢٨ كأنمـا أثبتـت، فـي صـحن وجنتـه زهـر الكواكـب تعويـذا وتزيينـا
٢٩ مـا ضـر أن لـم نكـن أكفـاءه شـرفا وفـي المـودة كـاف مـن تكافينـا
٣٠ يـا روضـة طالمـا أجنـت لواحظنـا وردا، جـلاه الصـبا غضـا، ونسـرينا

٣١ ويـــا حيـــاة تمليـنـــا، بزهرتهـــا منـــى ضـــروبا، ولـــذات أفانينـــا
٣٢ ويـــا نعيمـــا خطرنـــا، مـــن غضـــارته فـــي وشـــي نعمـــى، ســـحبنا ذيلـــه حينـــا
٣٣ لســـنا نســـميك إجـــلالا وتكرمـــة وقـــدرك المعتلـــي عـــن ذاك يغنينـــا
٣٤ إذا انفـــردت ومـــا شـــوركت فـــي صـــفة فحســـبنا الوصـــف إيضـــاحا وتبيينـــا
٣٥ يـــا جنـــة الخلـــد أبـــدتنا، بســـدرتها والكـــوثر العـــذب، زقومـــا وغســـلينا
٣٦ كأننـــا لـــم نبـــت، والوصـــل ثالثتنـــا والسـعد قـد غـض مـن أجفـان واشـينا
٣٧ إن كـان قـد عـز فـي الـدنيا اللقـاء بكـم فـي موقـف الحشـر نلقـاكم وتلقونـا
٣٨ ســران فـــي خـــاطر الظلمـــاء يكتمنـــا حتـــى يكـــاد لســـان الصـــبح يفشـــينا
٣٩ لا غـرو فـي أن ذكرنـا الحـزن حـين نهـت عنـه النهـى، وتركنـا الصـبر ناسـينا
٤٠ إنـــا قرأنـــا الأســـى، يـــوم النـــوى، ســـورا مكتوبـــة، وأخـــذنا الصـــبر تلقينـــا
٤١ أمـــا هـــواك، فلـــم نعـــدل بمنهلـــه شـــربا وإن كـــان يروينـــا فيظمينـــا
٤٢ لـــم نجـــف أفـــق جمـــال أنـــت كوكبـــه ســـالين عنـــه، ولـــم نهجـــره قالينـــا
٤٣ ولا اختيـــارا تجنبنـــاه عـــن كثـــب لكـــن عـــدتنا، علـــى كـــره، عوادينـــا
٤٤ نأســـى عليـــك إذا حثـــت ، مشعشـــعة فينـــا الشـــمول ، وغنانـــا مغنينـــا
٤٥ لا أكـــؤس الـــراح تبـــدي مـــن شـــمائلنا ســـيما ارتيـــاح ، ولا الأوتـــار تلهينـــا
٤٦ دومـــي علـــى العهـــد، مـــا دمنـــا، محافظـــة فـــالحر مـــن دان إنصـــافا كمـــا دينـــا
٤٧ فمـــا استعضـــنا خلـــيلا منـــك يحبســـنا ولا اســـتفدنا حبيبـــا عنـــك يثنينـــا
٤٨ ولـــو صـــبا نحونـــا، مـــن علـــو مطلعـــه بـــدر الـــدجى لـــم يكـــن حاشـــاك يصـــبينا
٤٩ أولـــي وفـــاء، وإن لـــم تبـــذلي صـــلة فـــالطيف يقنعنـــا، والـــذكر يكفينـــا
٥٠ وفـــي الجـــواب متـــاع، إن شـــفعت بـــه بـــيض الأيـــادي، التـــي مـــا زلـــت تولينـــا
٥١ عليـــك منـــا ســـلام الله مـــا بقيـــت صـــبابة بـــك نخفيهـــا، فتخفينـــا[1]

(١) ابن زيدون، ديوانه ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، (الكويت، مؤسسة البابطين للإبداع الشعري، الطبعة الثالثة ٢٠٠٤م): ١٦٧.

المبحث الثالث: الاتساق والانسجام النصي في نونية ابن زيدون:

تعد النونية من القصائد الشهيرة التي نالت الإعجاب، وهي قصيدة قالها ابن زيدون في محبوبته ولادة بنت المستكفي بعد أن حصل الخصام بينه وبينها وحصلت الفرقه وكان ذلك بسبب الواشون والحساد.

تحمل هذه القصيدة نبرة الحزن والأسى والتذكر للأيام السعيدة التي كان يعيشها الشاعر مع محبوبته، كما تحمل نبرة الأمل في تغيير حالته التي عليها.

إن طريقة معرفة اتساق القصيدة وانسجامها لا يتم إلى من خلال استعراض أدوات الاتساق والانسجام النصي وتطبيقها على أبيات القصيدة، وذلك من خلال تطبيق هذه الأدوات على النص/القصيدة.

إن أول ما تحدثنا عنه في الجزء النظري للاتساق هو الإحالة والشاعر في هذه القصيدة يستخدم مجموعة من الإحالات ساعدت باتساق الأبيات، وأدت دورها في تماسك القصيدة، ومن الإحالات الموجودة في القصيدة استخدام الشاعر للضمائر فمن ذلك ضمير الغيبة (هم) حيث استخدمه مضافًا إلى كلمتي (انتزاح- وقرب) في قوله:

من مبلغ الملبسينا، بانتزاحهم حزنا، مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا أُنسًا بقربهم قد عاد يبكينا

فالضمير (هم) في (انتزاح) إحالة إلى داخل النص وقد أغنى عن تكرار كلمة (الملبسين)، وفي (قرب) بديلا عن (ال) الموصولة في (الملبسين) أيضا. فضمير الغيبة (هم) عمل على تماسك البيتين بالإحالة داخل النص دون الحاجة إلى تكرار الألفاظ عدة مرات مما يسبب في تفكك النص.

كذلك الضمير المستتر في الفعل (عاد) قام بديلا عن عدد كبير من الألفاظ وهي(الزمان الذي مازال يضحكنا أنس بقربهم)، فأسهم الضمير هنا في اختصار عدد الوحدات الداخلية في تركيب الجملة.

يستمر الشاعر في استخدامه لضمير الغيبة لإحالات داخل النص، فمن ذلك استخدامه (الهاء) في عدة أبيات متتالية، في قول:

ربيب ملك، كأن الله أنشأه مسكا، وقدر إنشاء الورى طينا
أو صاغه ورقا محضا ، وتوجه من ناصع التبر إبداعا وتحسينا
إذا تأود آدته، رفاهية توم العقود، وأدمته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا في أكلته بل ما تجلى لها إلا أحايينا
كأنما أثبتت، في صحن وجنته زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفا وفي المودة كاف من تكافينا

حيث استخدم الشاعر الضمير (الهاء) تسع مرات، ففي كلمة (أنشأه) جاء بديلا عن جملة (ربيب ملك)، وفي كلمة (صاغه) جاء بديلا عن (ربيب ملك كأن الله أنشأه مسكا)، وفي (توجه) جاء بديلا عن

(ربيب ملك كأن الله أنشأه مسكا، وصاغه ورقا محضا)، وفي كلمة (أكفاءه) جاءت بديلا عن عدة أبيات متتالية سابقة لها. وهكذا فالضمير (الهاء) عمل على عدة إحالات داخل النص أدت إلى تماسك النص واتساقه، إضافة إلى شحذ ذهن القارئ والسامع بهذه الإحالات التي تساهم في عملية الاستذكار.

ومن الضمائر التي استخدمها الشاعر وفيها إحالة إلى خارج النص، ضمير المتلكم (نحن) في قوله:

وقد نكون، وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن ، وما يرجى تلاقينا

فالضمير (نحن) جسَّدَ لنا حالة الشاعر التي يقاسيها ويتجرعها، وما أصابه من الفراق والبعد، بعد الوصل والمحبة، فكأنه يقول: انظروا إلى حالتي الآن وما أنا عليه من الحسرة والحزن على هذا الفراق الذي لا يرجى له تلاقي.

ومن الإحالات النصية التي أوردها الشاعر استخدامه لاسم الإشارة، وهو كما عرفنا يقوم بالربط القبلي والبعدي داخل النص، مما يساعد على تماسكه، حيث نجد اسم الإشارة (ذاك) في قوله:

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

قد أظهر دور الربط القبلي فعوض عن تكرار (نسميك إجلالا وتكرمة)، وعمل على اختصار التركيب مما أدى إلى اتساق النص وتماسكه. كما أنه جعل النص في حالة نشطة لدى القارئ أو السامع في التذكر والاسترجاع.

أما أسلوب المقارنة فالشاعر استخدمه في وصف حالته وما آلت إليه، في قوله:

يا جنة الخلد أبدلنا، بسدرتها والكوثر العذب، زقوما وغسلينا

فقارن حالته قبل فراق محبوبته بـ(بجنة الخلد، والكوثر العذب)، في مقابل حياته التي يعيشها (زقوما وغسلينا)، فالمقارنه هنا بينت حالت الشاعر، وأدت اتساق النص بربط ما هو خارج النص بالنص.

كذلك من المقارنات التي جعلت الشاعر يبعث لنفسه الأمل بلقاء محبوبته، قوله:

إن كان قد عز في الدنيا اللقاء بكم في موقف الحشر نلقاكم وتلقونا

فالمقارنه بين (الدنيا) و(موقف الحشر) فأسلوب المقارنة بعث الأمل في الشاعر وجعله يعيش نوعا من عدم الانقطاع الدائم عن لقاء محبوبته، كما أدت المقارنه إلى تماسك النص بالإحالة إلى ما هو خارج النص وربطه بالداخل.

فالإحالات الماضية على قلتها إلى أنها أدت دورها في اتساق النص وتماسكه واستمراره، وربط النص بنموذج ذهني واحد، ساعدت في عملية التواصل.

ومن أدوات اتساق النص الاستبدال، وهو تعويض عنصر في النص بعنصر آخر، يحمل المدلول نفسه، وهي عملية داخل النص، تؤدي إلى اتساقه وتماسكه، من ذلك قوله:

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

فالشاعر استبدل (الإجلال والكرامة) بـ(القدر العالي)، مما ساعد على استمرارية النص، وعدم التكرار دون فائدة، فالجملة المستبدَله أدت دور الأولى دون إخلال، مما ساعد عل تماسك النص واستمراره.

كذلك من الاستبدال الاسمي قوله:

فمـــا استعضـــنا خلـــيلا منـــك يحبســـنا ولا اســـتفدنا حبيبـــا عنـــك يثنينـــا

فالاستبدال بين (خليلا- حبيبا) حيث ساعد الاستبدال على استمرارية النص وترابطه، إضافة إلى تنشيط ذهن السامع أو القارئ في الربط داخل النص.

ومن أدوات الاتساق الحذف، وهو إحداث فجوة في سطح النص، تجعل القارئ أو السامع ينشط ذهنيا في عملية ملء هذه الفجوة، بما يمتلك من معارف، فالحذف يشرك القارئ أو السامع في صياغة النص، مما يبعث فيه الاستمرارية والتجديد، كما أن تقدير المحذوف يختلف من موقف لآخر، فقد يكون سهلاً استدعى حذفه سهولة الوصول إليه، كما قد يكون عسيرًا يتطلب جهدًا، وذلك يختلف من شخص لآخر حسب معارفه وإطلاعه، ومن الحذف في نونية ابن زيدون، قوله: **(ربيب ملك كأن الله أنشأه)**، فكلمة ربيب هنا جاءت خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره (هو)، وهذا المحذوف وإنْ كان سهل التقدير إلا أننا نجد الشاعر يشرك المتلقي في النص مما يساعد في ربط المتلقي بالنص.

كذلك من الحذف قوله:

كأنمـــا أثبتـــت، فـــي صـــحن وجنتـــه زهـــر الكواكـــب تعويـــذا وتزيينـــا

فتقدير المحذوف الفاعل هنا ليس سهلاً إذ يحتاج إلى إعمال الذهن، فالتثبيت في صحن الوجنة قد يتعدد فاعله، فقد يقوم به المرءة نفسها، أو من يزينها ويجملها، لكن إذا رجعنا إلى الأبيات السابقة وفي قوله **(كأن الله أنشاه)** تبين لنا المحذوف، وتقدير الفاعل وهو الله سبحانه.

ومن حذف المفعول قوله:

واســـأل هنالـــك: هـــل عنـــى تـــذكرنا إلفـــا، تـــذكره أمســـى يعنينـــا ؟

فالفعل (اسأل) حذف مفعوله، وتقدير المحذوف هنا يختلف من متلقي لآخر فقد يكون (سكان القصر) أو (المحبوبة) أو (الأصدقاء)، أو غيرها من التقديرات، فالحذف هنا ساهم في زيادة المتعة لدى المتلقي، حيث جعله يبحث ويتفاعل مع النص.

والحذف في القصيدة كثير بأنواعه وقد اكتفيت ببعض الأمثلة، التي بينت دور الحذف في اتساق النص وربطه بالمتلقي، مما يوثق صلة النص بالمتلقي.

ومن أدوات الاتساق النصي الوصل، وهو تحديد للطريقة التي تربط السابق باللاحق، مما يساعد على تماسك النص، ومن أمثلة ذلك في النونية، قوله:

وقـــد نكـــون، ومـــا يخشـــى تفرقنـــا فـــاليوم نحـــن، ومـــا يرجـــى تلاقينـــا

فـ(الفاء) في بداية الشطر الثاني وصلت الشطر الأول بالثاني، مع كون كل شطر جملة مستقلة، فأدت الفاء هنا ما يشبه الوصل الشرطي الذي يمكن تأويله بـ(إن كنا في وضع لا يخشى تفرقنا، فقد أصبحنا في وضع لا يرجى فيه تلاقينا).

كما أن من الوصل التزامني استخدام الشاعر للواو التي تفيد الاشتراك بين المتعاطفين:

فانحل ما كان معقودا بأنفسنا وانبت ما كان موصولاً بأيدينا

فالجملة المعطوفة (انبت ما كان موصولاً بأيدينا)، تتماثل مع الجملة المعطوف عليها (انحل ما كان معقودًا بأنفسنا)، في جميع التراكيب الزمنية.

كذلك قوله:

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومربع اللهو صاف من تصافينا

فقد ربط الشاعر بين (جانب العيش طلق من تألفنا) وبين (مربع اللهو صاف من تصافينا) بـ(الواو)، مما أدت عملية الوصل إلى اتساق النص وتماسكه.

أما الاتساق المعجمي، وعلاقته باتساق النص من خلال التكرار، والتضام، فالشاعر استخدم الاتساق المعجمي في مواضع عدة من القصيدة، فنجد الشاعر استخدم التكرار في مواضع كثيرة وبصورة متنوعة، وقد أدى هذا التكرار عملية التماسك في النص.

فقد استخدم الشاعر لفظ (حين) مرة نكرة ومرة معرفة، وذلك في قوله في البيت الثاني: **(صبحنا حين، فقام بنا للحين ناعينا)**، وكذلك كملة (وفاء) في البيت التاسع: **(لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم)**، ثم في البيت التاسع والأربعين: **(أولي وفاء، وإن لم تبذلي صلة)**. وكذلك كملة (حزن) في البيت الثالث: **(حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا)**، وفي البيت التاسع والثلاثين: **(لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت)**.

كما استخدم اللفظ نفسه في موضعين من القصيدة، في قوله في البيت الثالث عشر: **(يقضي علينا الأسى لولا تأسينا)**، وفي البيت الأربعين: **(إنا قرأنا الأسى، يوم النوى سورا)**.

كذلك استخدم الشاعر أسلوب التكرار الجزئي، بحيث ينقل العنصر المستخدم إلى صور مختلفة، كنقل الفعل إلى الاسم والعكس، ومن أمثلة ذلك (حان، حَيْن، حِين، أحايينا، حينا)، وذلك في قوله:

ألا وقد حان صبح البين، صبحنا حين، فقام بنا للحين داعينا

وقوله:

نكاد، حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

وقوله:

كانت له الشمس ظئرا في أكلته بل ما تجلى لها إلا أحايينا

وقوله:

ويـــا نعيمـــا خطرنـــا، مـــن غضـــارته فـــي وشـــي نعمـــى، ســـحبنا ذيلـــه حينـــا

هكذا نجد دور التكرار في اتساق النص وتماسكه، فقد أدى الاستمرارية في تتابع النص وترابطه، كما أدى إلى شد النص بعضه ببعض، كما ساعد في تسهيل فهم النص.

أما عن دور التضام في القصيدة فقد استخدم الشاعر علاقات التضام بأنواعها، وقد أدت دورها في تماسك النص، فمن ذلك استخدامه للتقابل والتضاد بكثره، فعلى المستوى اللفظي نجد: (التنائي- تدانينا)، (لقيانا- تجافينا)، (يَبْلى- يُبْلينا)، (يضحكنا- يبكينا)، (انحل- معقودًا)، (انبت- موصولاً)، (يُخشى- يرجى)، (ابتلت- جفت)، (الأسى- تأسينا)، (سودا- بيضا)، (يكتمنا- يفشينا)، (يُروينا- يظمينا)، (دان- دينا)، (نخفيها- تخفينا).

ونجد الشاعر قد أجاد في توظيف علاقات التضام، في تعبيره عن المعنى المراد، فأحدث نوعًا من التماسك النصي.

كذلك نجده يستخدم جملاً متقابله كما في قوله:

أن الزمـــان الـــذي مـــا زال يضـــحكنا أُنسًـــا بقـــربهم قـــد عـــاد يبكينـــا

يعبر التقابل في البيت عن حالة الانكسار التي يمر بها الشاعر، وقد أدى هذا الاضطراب من الشاعر إلى الاضطراب في البيت فالبناء اللغوي للبيت متناقض، فالشاعر أراد أن يقول: إنَّ الزمان الذي كان يضحكنا بقربنا من أحبتنا قد عاد يبكينا. فمرحلة الإضحاك قد انتهت، لكنه استخدم مازال التي تدل على الاستمرار، فالإضحاك ما زال قائمًا مع البكاء، ولا يمكن أن يكون ذلك، وما وقع الشاعر بهذا التناقض إلا بسبب الاضطراب النفسي الذي أثَّرَ في تركيب الجملة.

ومن استخدامات الشاعر للتضام قوله:

يـــا جنـــة الخلـــد أبـــدننا، بســـدرتها والكـــوثر العـــذب، زقومـــا وغســـلينا

حيث تبدلت حالت الشاعر من النعيم إلى الشقاء، ومن الاستمتاع بالجنة وسدرة المنتهى والكوثر، إلى الجحيم والزقوم والغسلين، فعملية التضام هنا أدت دورها في تماسك النص من خلال علاقة الضد، حيث سهل الانتقال من حال إلى حال.

هنا نصل إلى نهاية أدوات الاتساق والتي تبين لنا دورها في تماسك النص وترابطه، وأثرها على المتلقي في جعله يتفاعل مع النص ويؤثر فيه.

أما أدوات الانسجام ودرها فيتبين لنا من خلال سياق القصيدة، فمعرفة السياق العام للقصيدة والظروف التي مرت بها، وأسبابها، يتجلى لنا انسجام النص، فالشاعر ابن زيدون قال قصيدته في محبوبته ولادة بنت المستكفي، فبعد أن عاش فترة من الزمن على علاقة الحب والمودة، أوقع الحاقدون والواشون بينه وبينها، فوقع الخصام والجفاء بعد الحب واللقاء، فتألم الشاعر كثيرًا، وحين أحسَّ بمرارة البعد والهجر كتب قصيدته هذه محاولاً لم الشمل، وقد بيَّنَ الشاعر هذه الحالة في مطلع قصيدته وألمح إلى ما كان عليه من الوصل، ثم بيَّنَ أثر هذا الفراق في نفسيهما، وأخذ بعقد مقارانات بين موقفه بقربها

وبعد حدوث الفراق، وكيف كانت أيامه قبل ذلك وبعده، ثم أخذ بالتفصيل بالذكريات السعيدة بينه وبينها، وما فيها من أحداث، مؤكدا موقفه من محبوبته بأن لا يقبل غيرها، ولم يغيره الفراق شيئا، بل ما زال على عهد المحبة والوفاء، حتى يصل إلى أواخر القصيدة الذي يتمنى فيه للمحبوبة دوام المحبة والوصل، الذي مازال مستمرًا عليه:

دومـــي علـــى العهـــد، مـــا دمنـــا، محافظـــة فـــالحر مـــن دان إنصـــافا كمـــا دينـــا

ثم يختم قصيدته بالسلام على المحبوبة، وهو عنوان دوام المحبة والإخاء:

عليـــك منـــا ســـلام الله مـــا بقيـــت صـــبابة بـــك نخفيهـــا، فتخفينـــا

إنَّ سياقَ القصيدة العاطفي يظهر جليًا وواضحًا، فعاطفة الشاعر حزينة منكسرة متأثره، يظهر ذلك من بداية القصيدة إلى نهايتها، كما يظهر موقف الشاعر من أعدائه وحساده الذي كانوا سببًا في هذا الفراق.

إنَّ سياقَ القصيدة بشكل عام منسجمًا انسجامًا كليًا، فالأحداث، والمواقف، وتسلسل الأبيات يوحي بهذا الانسجام، وقد أجاد الشاعر في ذلك حيث جعل القارئ أو المستمع لهذه القصيدة يتأثر بها، وينسجم معها، ولا أدل على ذلك من انتشار القصيدة، ومعارضتها وشهراتها.

إنَّ عنصرَ التأويل من العناصر التي يحكم بها على انسجام النص، وقصيدة ابن زيدون تحتمل أبياتها كثيرًا من التأويلات التي قد تخرجها خارج النص، لكن ربط التأول بالسياق العام للنص ومعرفة مناسبة النص والظروف المنتجه له، ينقل النص إلى التأويل السليم، وإبعاد مالا ينسجم مع النص.

أما عنصر التغريض، ودلالته في انسجام النص، فمن خلال عنوان هذه القصيدة (آمل وآلام) ومعرفة مناسبتها، نجد ابن زيدون قد أجاد في الربط بين مضمون القصيدة العام وبين عنوانها، كما أنها تحمل معانات الشاعر وتحاكي واقعه المرير.

وفي الختام يتضح لنا اتساق قصيدة ابن زيدون وانسجامها، وذلك من خلال تطبيق معايير الاتساق والانسجام النص، حيث ظهرت القصيدة مترابطة منسجمه، لا توحي بالتفكك والانقسام.

المصادر والمراجع:

١. إلهام أبو غزالة، مدخل إلى علم لغة النص، (مطبعة دار الكتاب، الطبعة الأولى ١٩٩٢م).

٢. أحمد عفيفي، نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، (القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠١م).

٣. أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، (بيروت، منشورات ضفاف، الطبعة الأولى ٢٠٣م).

٤. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، (القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الخامسة ١٩٩٨م).

٥. الأزهر الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، (بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٣م).

٦. جمعان عبدالكريم، مفهوم التماسك وأهميته في الدراسات النصية، (مجلة علامات، ٢٠٠٧م، المجلد السادس عشر، الجزء الحادي والستون).

٧. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: إحسان عباس، (القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٩٩٨م).

٨. ابن زيدون، ديوانه ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبدالعظيم، (الكويت، مؤسسة البابطين للإبداع الشعري، الطبعة الثالثة ٢٠٠٤م).

٩. سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، (مصر، الشركة العالمية للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٧م).

١٠. شريفة بلحوت، الإحالة دراسة نظرية، مع ترجمة الفصلين الأول والثاني من كتاب: (Cohesion in English) لهاليداي ورقية حسن، (رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٥م).

١١. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، (الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٦٤، أغسطس ١٩٩٢م).

١٢. الطيب العزالي قواوة، مفهوم التماسك النصي عند القدامى والمحدثين، (جامعة الوادي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، العدد الرابع، مارس ٢٠١٢م).

١٣. عزة شبل محمد، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، (القاهرة، مكتبة الآداب).

١٤. فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح شبيب العجمي، (الرياض، جامعة الملك سعود، سلسلة اللغويات الجرمانية، الكتاب رقم ١١٥).

١٥. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة ٢٠٠٥م).

١٦. محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، (القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٣م).

١٧. محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، (بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى ١٩٩١م).

١٨. محمد عزام، النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، (دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١م).

١٩. ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ).

٢٠. نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراس معجمية، (عمان، عالم الكتب الحديث، الطبعة الثانية ٢٠١٠م).

٢١. نوال بنت إبراهيم الحلوة، أثر التكرار في التماسك النصي، مقاربة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات د. خالد المنيف، (مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد الثامن، مايو ٢٠١٢م).